HARRAN ÜNİVERSİTESİ İLAHİYAT FAKÜLTESİ
HARRAN UNIVERSITY FACULTY OF THEOLOGY

ULUSLARARASI MEVLÂNA VE MEVLEVÎLİK SEMPOZYUMU

INTERNATIONAL SYMPOSIUM ON MAWLANA JALAL AL-DIN RUMI AND MAWLAWISM

Mevlâna Celaleddin Rumi'nin 800. doğum yıldönümü anısına

BİLDİRİLER II

26–28 EKİM 2007

ŞANLIURFA

ULUSLARARASI MEVLANA VE MEVLEVİLİK SEMPOZYUMU BİLDİRİLERİ-II

ISBN
978-605-89998-2-4

Düzenleyen Kuruluşlar
Harran Üniversitesi İlahiyat Fakültesi
Şanlıurfa Mevlevihanesi Yaşatma ve Kültür Derneği

Editörler
Prof. Dr. Abdurrahman ELMALI
Prof. Dr. Ali BAKKAL

Düzenleme Kurulu
Başkan: Prof. Dr. Abdurrahman ELMALI
Sekreterya: Dr. Hüseyin KURT
Prof. Dr. Ali BAKKAL, Prof. Dr. Musa Kazım YILMAZ, Prof. Dr. Adnan DEMİRCAN, Prof. Dr. Yusuf Ziya KESKİN, Doç. Dr. Murat AKGÜNDÜZ, Yrd. Doç. Dr. Cüneyt GÖKÇE, Yrd. Doç. Dr. Harun ŞAHİN, Yrd. Doç. Dr. İ. Hakkı İNAL, Yrd. Doç. Dr. Yasin KAHYAOĞLU, Yrd. Doç. Dr. Ahmet ASLAN, Dr. Celil ABUZER, Dr. Halil ÖZCAN, Dr. Kadir PAKSOY, Dr. Veysel KASAR, Dr. Vehbi ŞAHİNALP, Okt. Kadir ALPEREN, Okt. Abdülkadir AYDIN, Okt. Mehmet OYMAK

Bilim ve Danışma Kurulu
Prof. Dr. İbrahim DÜZEN
Prof. Dr. Ethem CEBECİOĞLU
Prof. Dr. Osman TÜRER
Prof. Dr. Mustafa KARA
Prof. Dr. Abdullah ÖZBEK
Prof. Dr. Abdülhakim YÜCE
Prof. Dr. İsmail YAKIT
Prof. Dr. Ali BAKKAL
Prof. Dr. Musa Kazım YILMAZ
Prof. Dr. Adnan DEMİRCAN

Dizgi-Tasarım
Arş. Gör. Dr. Hüseyin KURT
Harran Üniversitesi İlahiyat Fakültesi

Grafik Tasarım
Öğr. Gör. Haldun ÖZBUDUN
Harran Üniversitesi Fen-Edebiyat Fakültesi

Adres
Harran Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Osmanbey Kampusü/ Şanlıurfa

ومضات معرفيّة في سماء مولانا جلال الدين الروميّ (ت 672هـ)

د. محمود مصري*

كان جلالُ الدين محمدُ بن محمدٍ البلخيُّ المعروفُ بالرومي واحدًا من أعظم النجباء الذين أنجبتهم مدينة بلخ التابعة لإقليم خراسان، فانضم إلى العقد الفريد الذي يطالعنا في بداياته أبو زيد البلخي (ت 322هـ)، ونلمح في واسطته ابن سينا (ت 428هـ) والغزالي (ت 505هـ)، ونقع في نهاياته على الكنز: مولانا جلال الدين (ت 672هـ).

ولعل شخصية جلال الدين الرومي قد اكتسبت عالميتها من خلال سعة إنائه المعرفي، فقد ظهر مولانا منقذًا للإنسان، يدلّه بصدق على سعادته الحقيقيّة، لا صاحب فلسفةٍ نظريّة.

إن هذه الومضات التي تبهرنا، ونحن نطالع سماء مولانا جلال الدين تعزّ على التقييد في كلماتٍ محدودة، لكننا سنحاول في هذا البحث استجلاء المنظومة المعرفية عند مولانا من خلال ما سنعرضه من بعض سنا تلك الومضات، مرتّبةً في ثلاث مجموعات: **1-ومضاتٌ: الطريقةُ والعرفان 2 ومضاتٌ: مقامات العرفان 3 ومضاتٌ: قيم الجمال المعرفيّة عند الروميّ**

كان جلال الدين الصغير معجبًا بالشاعر الصوفيّ فريد الدين العطار أشدَّ الإعجاب، وقد عبّر عن هذا الإعجاب بقوله: **"لقد اجتاز العطار مدن الحبّ السبع، بينما لا أزال أنا في الزاوية من ممرٍّ ضيّق"**. غير أن الاستعداد القوي عند جلال الدين الصغير لبلوغ مبلغ العطار في المعرفة لم يكن ليخفى على أصحاب الفراسة كالشيخ محي الدين بن عربي، الذي لقيه في دمشق، فقال عندما رأى جلال الدين يمشي خلف أبيه بهاء الدين: **"سبحان الله محيطٌ يمشي خلف بحيرة"**.

كانت المرحلة الأولى من حياة جلال الدين مرحلة تعلُّم وتعليم، فبعد تلقيه العلوم واستقراره في قونية، خلف أباه -بعد موته في الوعظ والتعليم هناك، وكان عمره أربعًا وعشرين سنة، وتتلمذ في هذه المرحلة على تلميذ أبيه برهان الدين محقّق الترمذيّ، ثم إنه بعد رحلةٍ استمرت سبع سنواتٍ مرّ فيها بحلب ودمشق عاد إلى قونية ليتولى تدريس العلوم الشرعية في مدرستها إلى جانب التوجيه الروحيّ، إلى أن كان استهلال المرحلة الثانية من حياته بالحدث الكبير الذي جذبه إلى مشرب التصوف، وهو لقاؤه بشمس تبريزي (ت 1247م) سنة 1244م، وسماعُ كلمات سنائي منه: **"إذا لم يحرّر العلمُ النفسَ من النفس، فإن الجهلَ خيرٌ من علم كهذا"**. وهكذا فإن شخصية جلال الدين مثال للعالم الصوفي، وهو أقوى عند محققي أهل العرفان من الصوفي العالم.

ومنذ ذلك اللقاء بشمس تبريزي اصطبغت حياة مولانا جلال الدين بالمعرفة التي شعّ سناها ليطال الأيام والحوادث التي مرّ بها، والتي نتلمس جوانبها في هذه **الومضات**:

1- ومضاتٌ: الطريقةُ والعرفان:

لا بدّ للمريد السالك من منازل يمرّ بها في طريق المعرفة، التي خُلق من أجلها، فالمعرفة هي الأصل، وحتى يعود إلى هذا الأصل، ويتحقّق بكماله الإنسانيّ، عليه أن يسلك في مراحل الطريقة[1]. قال الروميّ مجمِلًا هدف الطريقة: **"نفسك الأولى ترجع إلى نفسك الحقّة"**[2]. وقال مفصّلًا:

"في اللحظة التي دخلتَ هذا العالم
وُضع سلّمٌ أمامك ليمكّنك من النجاة
في الأول كنتَ جمادًا، ثمّ صرتَ نباتًا
ثمّ بعدئذٍ صرتَ حيوانًا، كيف يمكن أن تتجاهله؟

---

*الجمعية السورية لتاريخ العلوم/حلب mahmoudmasri@fastmail.fm

(1) الطريقة: التدابير التي تتصل بإصلاح الضمائر لتتهيّأ لإشراق أنوار الحقائق عليها (يُنظر معراج التشوف إلى حقائق التصوف لابن عجيبة 39).
(2) المثنوي 3769/6.

ثمّ جُعلتَ إنسانًا موهوبًا معرفةً وعقلًا وإيمانًا
انظر هذا الجسد المصنوع من التراب، أيّ كمالٍ اكتسب!
وعندما تتجاوز شرط الإنسانيّة
لا شكّ في أنك ستغدو ملاكًا
بعدئذٍ ستنتهي من هذه الأرض، إقامتك ستكون في السماء
تَجاوزِ الحالَ الملائكيّة، وغُص في هذا المحيط
لتقدرَ نقطةُ الماء التي هي أنت أن تصير بحرًا"[1].

والطريق المرتبط بهدف المعرفة هو سفرٌ من نوع خاص، إنه معراجٌ روحيّ، ينشط فيه الجسد للخدمة، على قدر علوّ همة صاحبه:

"لقد سافرتَ أنت من النطفة إلى العقل، ولم يكن ذلك بالخطو، وليس ثمّة حلٌّ ولا تَرحال
سيرُ الأرواح بلا كيفٍ في الزمان والمكان، فتعلّمي يا أجسامنا السيرَ من أرواحنا"[2].

وكثيرًا ما تختلف مشارب التصوف في تفاصيل الطريقة، مع أن النهايات واحدةٌ عند الجميع، لأن معروفهم واحدٌ:

عباراتنا شتى وحسنك واحدٌ وكلٌّ إلى ذاك الجناب يشير

وإذا كان هذا الاختلاف يطبع كلّ طريقةٍ بسمةٍ معيّنة فإن سمة الوسطيّة والاعتدال ميّزت طريقة مولانا جلال الدين، كما سيلوح لنا ذلك فيما سنعرض إليه من بعض التفاصيل:

1--1 ومضة: حقيقة المرشد: يعمّق الروميّ النظرة الصوفيّة إلى المرشد الدالّ على الله، من جهة كونه سببًا في الوصول إلى التحقّق في مقام الفناء (**وقد رمز له بقوله: يغدو البحر**)، والبقاء (**وقد رمز له بقوله: يتأمّل القمر**)[3]. في الوقت الذي يجعل منه مساعدًا ليس غير، وذلك قيامًا بحقّ الحقيقة والشريعة بآنٍ معًا: **"دون العون المنقذِ لسيّدي شمس الحقّ التبريزيّ لن يكون في وسع أحدٍ أن يتأمّل القمر أو يغدو البحر"**[4].

غيرَ أن السلوك بقُصّاد المعرفة إلى مقامات الفناء والبقاء لا يكون إلا إذا وافق استعدادُ المريد المدعّمُ بأنوار التوجّهات تألّقَ أنوار المواجهة عند الشيخ، وارتقى الطلب الذاتيّ للمريد إلى مستوى همّة الشيخ، وهذا ما عبّر عنه مولانا بقوله: **"شمسُ شمس الدين، تألّقُ تبريز، لم تسطع على شيءٍ قابلٍ للفناء إلا جعلته أزليًّا"**[5]. فالشيخ يُظهر الاستعداد الكامن في المريد، ويساعده على ولادة روحه بما أوتي من الحكمة، آخذًا بيده، بعد أن قبله على ما هو عليه، مراعيًا الفروق الفردية بين المريدين. قال مولانا: **"النار التي بها صلاح الحديد أو الذهب، كيف يكون بها صلاح السفرجل أو التفاح الرطب"**[6].

وهكذا فإن وظيفة المرشد هي الأخذ بيد السالك إلى أن يمحو من مشهده أوهام السوى، وهذا شرطٌ لترقي السالكين في مقامات المعرفة، متّفقٌ عليه عند أرباب السلوك. يقول الروميّ معبّرًا عن ذلك التجرّد في أعلى مراحله، وهو التجرّد عن النفس –بعد التجرد عن الكون :

"جئتُ لآخذك بيدي
لأجرّدك من قلبك ونفسك
وأسكنك في القلب والروح
جئتُ في منتصف ربيع جميل، يا شجرة الورد
لأحيطك بذراعيّ، وأمسك بك
جئتُ لأخلع عليك –في هذه الدار السناء
سأحملك إلى أعالي السماوات

---

(1) أغانٍ صوفيّةٌ 2.
(2) المثنوي 1979/3، وما بعد.
(3) الفناء: إذا أُطلق الفناء إنما ينصرف للفناء في الذات. وحقيقته: محو الرسوم والأشكال بشهود الكبير المتعال. أو شهود الحق بلا خلق. والبقاء: الرجوع إلى شهود الأثر بعد الغيبة عنه بشهود المعنى، لكنه يراه قائمًا بالله، ونورًا من أنوار تجلّياته. فهو شهود الخلق بالحق (يُنظر معراج التشوف إلى حقائق التصوف لابن عجيبة 39).
(4) أغانٍ صوفيّةٌ 649.
(5) المصدر السابق 681. والمقصود أن شمس المعرفة إذا سطعت على قلب صاحب الاستعداد انمحى وجوده ، ولم يبق إلا وجود الحق الأزلي.
(6) المثنوي 827/2.

مثل دعاء العاشقين"[1].

1-2- ومضة: جاهد تشاهد: من القواعد الثابتة التي تعدّ مشتركة في جميع الطرق أن مجاهدة النفس من أهم أسباب تحصيل الصفاء، ومحو كدر الحس، في سبيل الوصول إلى مقام العرفان. فكلما زاد الإنسان بالحس نقص بالمعنى وكلما نقص بالحس زاد بالمعنى. يقول الروميّ: **"إن طمأنينة عقلي تعتمد على المجاهدة التي آخذُ بها جسدي. وعندما أريد لحظة راحة، يأبى روحي ذلك"**. ويقول أيضًا: **"ارتح فإن العاشقَ الصوفيَّ في مجاهدةٍ. يجد كنزًا في المشقّة، وبهجة في البحث"**[2].

والمجاهدة المطلوبة تقوم على خلع المذموم من الصفات من أجل التحلي بمحمودها، وذلك في طريق التأهّل للفهم عن الله:

"غايتي أن أعرف بالعين والمشاهدة...

شوق المشاهدة يقول: انهض وتحرك...

ومثلما يغسل الطفل لوحتَه قبل أن يطبع حروفه عليها

يحوّل الحقُّ القلب بالدّم ودموع الأسى

قبل أن ينقش أسرارَه عليه"[3].

1-3- ومضة: الكمال هو كمال الاتباع: وهذا يعني أنه لا يُزاد على السنّة، وفي بلوغ الاتباع والتأسي بصاحب السنّة ρ غاية مطلوب أهل الكمال. فالطريقة متلازمةٌ مع الشريعة دائمًا، وأيّ انفصالٍ بينهما هو خروجٌ عن المنهج السويّ. يقول الروميّ: **"كلّ المأمورات التي أمر بها الأنبياء والأولياء أو المنهيات التي نهوا عنها، كلّ الأبنية القوية التي وضعوا قواعدها، ضابطين إياها بعناية تدعونا إلى فعل الشيء نفسه. واجبٌ علينا أن نقوم بها، وأن نُبقي عليها ونتعهد بمتابعتها"**[4].

1-4- ومضة: التعامل مع الأسباب: إن شهودَ مسبِّب الأسباب، وإدراكَ إحاطته بها عند أهل الكمال لا يلغي التعامل معها، بل يتعامل العبد معها في ظاهره، وباطنه معلّقٌ بمسبِّبها، القائم عليها بما كسبت. ومن هنا كان لكسب المريد شأنٌ كبيرٌ عند الروميّ، إذ يقول: **"على المرء أن يحافظ على كرامته، عليه أن يعمل... كلّ إنسان قادرٌ على العمل من أجل معاشه. واحدٌ يقدر على التجارة، والآخر يقدر على الكتابة. ومن لا يعمل لا يستحقّ نقيرًا"**[5].

والقاعدة عندهم أن الدرويش المولويّ لا يقبل الصدقة ما لم يمض عليه ثلاثة أيام لا يجد فيها ما يأكل[6].

1-5- ومضة: النظرة إلى الآخر: العالم كله عند جلال الدين أمة رسول الله ρ، منهم من اهتدى (أمة الإجابة)، ومنهم من يدعو له رسول الله ρ بالهداية (أمة الدعوة). يقول الروميّ: **"الناس جميعًا مصنوعون من أجزاء شخص واحد، وهو ما يمثّله حديث النبيّ ρ: (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون). قومي: أي: أجزائي المكوّنة للكلّ، لأنه إن لم يكن غير المؤمنين جزءًا منه، فإن (قومي) لن يكونوا الكلّ"**[7].

2- ومضات: مقامات العرفان:

إذا كان المريد في الطريقة طالبًا للمعرفة فإنه لن يتحقق بمقاماتها حتى يكون مطلوبًا. يقول الروميّ: **"أيها الإنسان، طالما أنك منشغلٌ بهذا المطلب الزائل، ومتوقفٌ عند الوصف البشريّ تظلّ بعيدًا عن المقصود. وعندما يفنى مطلوبك في مطلوب الحقّ، ويستولي مطلوب الحقّ على مطلوبك، عند ذاك تغدو طالبًا بمطلوب الحقّ"**[8].

2-1- ومضة: الفناء في الذات: بعد الترقي في المقامات الإيمانيّة، والوصول إلى اليقين، يكون الفناء أولَ قدم يضعه السالك على طريق العرفان عند أهل هذا المشرب، وقد عبّر الرومي عن الوصول إلى ذلك المقام بالتخلّص من كثافة الحس، والوقوف مع لطف المعنى، وذلك من خلال إطلاق العنان للخيال، لتمثيل الفناء برموزٍ من عالم المِثال:

"في السماء، وقت السحر طلعَ قمر

---

[1] أغان صوفيّة 322.
[2] الأفلاكي، مقامات العارفين، 309/1.
[3] المثنوي 1821/1، وما بعد.
[4] الأفلاكي، مناقب العارفين، 219/1.
[5] المرجع السابق، 150/1.
[6] جلال الدين الرومي والتصوف لميروفتش 53.
[7] الأفلاكي، مناقب العارفين، 276/1.
[8] فيه ما فيه، الفصل 51.

هبط من السماء، وأخذ ينظر إلينا
ومثل بازيٍّ يختطف طائرًا أثناء الصيد
اختطفني ذلك القمر، وأسرع فوق الفلك
وعندما نظرت إلى نفسي لم أر نفسي
لأنه في ذلك القمر صار جسمي من اللطف مثلَ الروح
وعندما طوّفت داخل الروح ما رأيت سوى القمر
حتى كُشف لي سرُّ التجلّي الأزليّ كلُّه
الأفلاك التسعة كلُّها انغمرت في ذلك القمر
وسفينة وجودي كلّه اختفت في ذلك البحر"[1].

فالشهود في مقام الفناء يستلزم استهلاك العبد بالكليّة، إذ تُستغرقُ هويته في أنوار المواجهة. يقول مولانا: **"ليس نوره مثلَ نور القمر وضياء الشمس، تظلّ الأشياء بوجودهما على حالها، عندما يسطع نوره بعد حجاب، لا يبقى ثمّة سماءٌ ولا أرضٌ ولا شمسٌ ولا قمر. ليس ثمّة إلا ذلك الملك"**[2].

2--2 **ومضة: البقاء بعد الفناء:** إن شهود آثار تجلّيات الأسماء والصفات هو مجال بقاء العارف بعد فنائه، وتلك التجلّيات هي التي أبرزت الحسّ، كما أبرزت المعنى:

"ذلك البحر قذف الموج، وظهر العقل ثانية
وألقى النداء، هكذا صار، وكذلك صار
أزبد ذلك البحر، وبكلّ فقاعةِ زبد
ظهرت صورةٌ لفلان، وصار جسمٌ لفلان"[3].

وكلُّ بقاءٍ عند أهل العرفان بعده فناء، كما أن كلّ فناءٍ بعده بقاء، وما للترقي انتهاء:

"وكلّ فقاعة زبدٍ من التي صارت أجسامًا
لأنها تلقّت إشارةً من ذلك البحر
ذابت حالًا، وأسرعت في ذلك البحر"[4].

وهكذا فمن لا يتناهى معروفه لا تتناهى معرفته، فالسير إلى الله ينتهي، والسير في الله لا ينتهي، والورد لا يزيد الظمآن إلا عطشًا:

"ومن ذلك الحين عليه أن يتابع سيره دون توقف
مثل المستسقي الذي لا يرتوي من الماء
بالله عليك لا تقف عند أيّة منزلةٍ حصلتَ عليها
فهذا البلاط الإلهي حضرةٌ لا نهاية لها
فدع موضع الصدارة، فإن صدارتك هي الطريق نفسه"[5].

2--3- **ومضة: الفناء في الصفات:** وهو عند المحققين بعد الفناء في الذات، فإذا انزوت عن العارف الصورة الحسيّة للممكنات بعد تحققه بالمحو شهد العلم والإرادة والقدرة، وغابت عنه صورة المكوَّن، فيشهد مثلًا أن القول واحدٌ، لكن رتبة النسبة إلى القائل هي المتغيّرة: **"أما قوله لك فيتولّاه روح القدس، يقوله من دوني. لا، أنت تقوله أيضًا لأذن نفسك، لا أنا ولا غيري، يا من أنت أنا"**[6].

"أنا أقول، وأنا أسمع، وليس في الدار غيري ديّار... في داخل ذاتك الرائي والمرئي شيءٌ واحد"[7].

---

(1) أغاني صوفيّة 649.
(2) فيه ما فيه، الفصل 3.
(3) المثنوي 1960/3، وما بعد.
(4) أغاني صوفيّة 649.
(5) المثنوي 1960/3، وما بعد.
(6) المصدر السابق 1298/3، وما بعد.
(7) أغاني صوفيّة 5.

فالعارف إذا نطق فبالله، وإذا سمع فبالله، وإذا نظر فبالله:

"ثبّت عينيك على الحق، ولا تتحدّث عمّا هو غير مرئيٍّ، حتى يركّب لعينيك نظرًا آخر

فذلك النظر كان نظرًا للعين

ولا يُطلب منه غيبٌ وسِرّ

وعندما يكون النظر بنور الله

أيُّ شيءٍ يظلّ خفيًّا تحت ذلك النور"[1].

2--4 **ومضة: الفناء في الأفعال:** ويمكن أن يكون قبل الفناء في الذات، إلا أنه لا يكمُل، ويأخذ بعده المعرفيّ إلا بعد الفناء في الذات:

"القلب مثلُ حبّة الرمل، ونحن حجر الرحى

هل يدري حجر الرحى لِمَ يدور

الجسد كحجر الرحى

والفِكَر مثلُ الماء الذي يُديره

الحجر يتحدّث، والماء يعرف ماذا يفعل"[2].

2--5 **ومضة: بين الحبّ والعرفان:** الحبّ عند الصوفيّة هو الأساس الذي بني عليه العالم: "كنتُ كنزًا مخفيًّا، لم أُعرف، فأحببتُ أن أُعرف"، وعن هذه الإرادة الحبيَّة صدرت الأكوان. ومن هنا لا تكملُ محبّة المحبّ إلا إذا كان مستغرقًا في وجود المحبوب، فعندها يزول وهم (أنا)، ويعود الفرع إلى الأصل:

"المعشوق هو كلّ شيء، وأما العاشق فليس سوى حجاب...

يريد الحبُّ لكلمته أن تُظهر نفسها"[3].

تقول إحدى حكايات المثنوي: "في يوم من الأيام قرع رجلٌ الباب على صديقه. قال الصديق: من القارع؟ أجاب الرجل: أنا. قال الصديق: انصرف، فإنني لا أعرفك. وبعد سنة من الغياب، تحرّق فيها شوقا وأسًى، عاد الفقير إلى صديقه، فسأل الصديق، من أنت؟ في هذه المرّة قال الزائر: أنا أنت. فقال الصديق: ادخل، لأنك أنا، ليس هاهنا بيتٌ يتسع لاثنين"[4]. وهكذا فإن المعرفة تصبغ الحبّ بصبغة الفناء عن النفس والسوى، فيكون تعلّق المحبّ بمحبوبه مستهلِكا له بالكليّة:

"جاء الحبّ، وهو مثلُ الدم في عروقي وفي لحمي

وقد أفناني وملأني بالمعشوق

والمعشوق تخلّل كلّ خليّةٍ في جسدي

ومني لم يبق سوى اسمٌ، وكلّ شيءٍ آخر هو هو".

فإذا رسخت قدم العارف في المحبّة صار في بقائه محفوظًا، فيزداد الحبّ، لكنّ العارف يزداد به كمالًا:

"منذ أن أترعَ الحبُّ قلبي

لم يستطع جاري النوم بسبب آهاتي

والآن تضاءلت آلامي، ونما حبي

فعندما تشتعل النار بقوة الريح، لا يبقى لها دخان"[5].

3- ومضات: قيم الجمال المعرفيّة عند الروميّ:

إن مصدر الجمال واحدٌ عند العارف، كما أن مصدر العلم واحدٌ:

"والحقّ أن كلّ مخلوق شاهدٌ للجمال الإلهي

---

(1) أغاني صوفيّة 833.

(2) الأفلاكي، مناقب العارفين، 291/1.

(3) المثنوي 30/1، وما بعد.

(4) المصدر السابق 1785/1، وما بعد.

(5) الرباعيات.

اعلم يا بنيّ أنّ العالم كلَّه وعاءٌ مملوءٌ بالعلم والجمال حتى الحافّة

حتى إنه لامتلائه لا يسع قطرةً واحدةً من دجلة جماله يضعها تحت جلده"[1].

3--1 ومضة: شهود الظاهر في المظاهر: كان الروميّ يتغنّى بالجمال المطلق الذي بدا في القيود، وكان هذا المشهد عنده معمَّمًا حينًا، كما عبّر عن ذلك بقوله: **"كلّ قطرةٍ من البحر تَجسّدُ في صورةٍ ظاهرةٍ"**[2]، وكان لائحًا في صورةٍ بعينها حينًا آخر، إذ يقول: **"اعلم يقينًا أن اسمَه جنيد أو بايزيد"**[3]. فالمرشد الذي يدلّ الخلق على الحقّ صار عند الروميّ مظهرًا للحقيقة المطلقة، جامعًا لتجلّيات الأسماء.

3-2- ومضة: تغليب الجمال على الجلال في التربية: مما لا شكّ فيه أن التربية بالجمال، وبما يوافق الطبع تعطي الراحة للمريد في سيره إلى الله، فيكون وصوله أقرب إليه من طبعه. ومن الملاحظ أن منهج الروميّ كان أقرب إلى هذا المشرب الجماليّ. يقول مولانا: **"إذا كنت تبحث عنّا، فابحث بفرح، لأننا نقيم في مملكة الفرح"**[4].

ومن التربية بالجمال توظيف **الحكاية** عند الرومي، فقد شكّل التراث الشعبي الإيراني، وقصص كليلية ودمنة، وأعمال سنائي والعطار مصادر أساسيّة لكتابات جلال الدين. وكانت لطافة الحكايات التي يوردها تنمّ عن فلسفةٍ جماليّة في التربية، يدرك القارئ أبعادها بكلّ يسر. يقول الرومي: **"إن حكاياتي ليست أشياءَ لإثارة الضحك البتة، بل هي تعليمٌ، يراد منها أن توجّه وأن تجعلَ فكري مفهومة"**[5].

3-3- ومضة: انفعال جمال الطبيعة للعارف، وانفعال العارف له: العارف جزءٌ من التناغم الكوني في منظومة المعرفة، تراه ينفعل للكون، وينفعل له الكون، دونما تكلّف. يقول الرومي: **"الكون كلُّه يردّد بهجة الانتصار:**

أرى الدنيا ملأى بالنعيم، والمياهَ تتدفّق من العيون دائمًا

والأغصانَ راقصةً كالتائبين، والأوراقَ مصفقة كالمطربين"[6].

3-4- ومضة: السماع غذاء الروح: إن جمال الكون، وهو الخمر الذي سكر به أهل العرفان، هو جمال المعنى الذي يستتر بالحسّ، والسماع عند الصوفيّة عمومًا والمولويّة خصوصًا ما هو إلا نموذجٌ من مظاهر ذلك الجمال الحسّيّ الذي منه تقبضُ المعنى. فهاهو الرومي يتحدث عن الرباب، قائلًا: **"هذه مجرّد عودٍ جافٍّ، قطعةٌ يابسةٌ من الخشب وجلدٌ جافّ، لكن صوت حبيبي يصدر عنها"**[7]. وقد اقترن السماع بالطريقة المولوية، كأنهما متلازمان، حتى عبّر الروميّ عن ذلك بقوله: **"ثمّة طرقٌ كثيرةٌ توصل إلى الله، وأنا اخترت طريق الرقص والموسيقا"**[8]. إن التربية بالجمال التي كانت طريقة ومنهجًا عند الروميّ جعلت من الموسيقا عنده ركنًا مهمًّا يتحصّل به ما لا يتحصّل بغيره، وقد عبّر عن ذلك بقوله: **"سرٌّ من الأسرار مستترٌ في إيقاعات الموسيقا. ولو كشفتُه لزلزل العالم"**[9]. ولعلّه باح ببعضه عندما قال: **"نحن الناي، وموسيقانا منك..."** [10]، وأشار إلى ذلك السرّ في رباعياته أيضًا، فقال: **"سألت الناي: ما شكواك؟ فأجابني الناي: "فُصلت عن القصباء، ولا أستطيع البقاء دون نواح ونحيب"**. وهكذا فالسماع المعوّل عليه عند الروميّ هو السماع الذي يردّه إلى السماع القديم: {ألست بربكم؟ قالوا بلى} (الأعراف 172):

"استمع لهذا الناي كيف يشكو، إنه يتحدث عن آلام الفراق:

منذ أن قُطعتُ من القصباء، والرجال والنساء يبكون لبكائي

أريدُ صدرًا مزّقه الفراق حتى أشرح له ألمَ الاشتياق

فكلّ من أبعد عن أصله يظلّ يبحث عن زمان وصله

وقد صرت نائحًا في كلّ نديّ، وغدوت ملازمًا لأهل الآلام ولأهل السعادة

وكلّ شخص ظنّ أنه صار حبيبًا لي، ولم يبحث أحدٌ عن أسراري من الداخل

وليس سرّي بعيدًا عن نواحي، ولكن ليس للعين والأذن ذلك النور الذي تدركان به أسراري

---

(1) المثنوي، 2860/1.
(2) أغان صوفيّة 649.
(3) المصدر السابق 583.
(4) الأفلاكي، مناقب العارفين، 276/1.
(5) المرجع السابق، 293/1.
(6) المثنوي، 3268/4.
(7) المصدر السابق، 3266/1.
(8) الأفلاكي، مناقب العارفين، 309/1.
(9) المثنوي، 3268/1.
(10) المثنوي، 599/1.

وليس الجسم بمستور عن الروح، ولا الروح بمستور عن الجسم، لكنه ليس لشخص إذنٌ برؤية الروح
إن صوت الناي نارٌ، وليس هواءً منفوخًا، فلا كان من ليست لديه هذه النار
إن نار العشق هي التي حلّت في الناي، مثلما أن جيَشان العشق هو الذي جعل الخمرة تغلي
الناي صفيّ كلّ من أبعد عن حبيب، وأنغامه مزّقت ما أسدل على أبصارنا من حجب"[1].

وقد صرّح الروميّ بهذا المعنى المقصود من السماع عندما حكى قصّة إبراهيم بن أدهم الذي جذبه السماع إلى التصوّف، فقال:

"لكنّ مقصوده من الاستماع إلى صوت الرباب، كالمشتاقين، خيالَ ذلك الخطاب الإلهيّ
لأن صوت المزمار وهدير الطبل شبيهٌ بعض الشيء بصوت الصور الشامل...
نحن جميعًا أجزاء من آدم، وقد سمعنا هذه الألحان في الجنّة
ورغم أن الماء والطين قد غمرانا بالشك، يظلّ شيءٌ من هذه الألحان يعود إلى ذاكرتنا
أما وقد مُزجت بتراب الكرب، فأنّى لهذه الأصوات العالية أو الخفيضة أن تحبونا الطرب
ولذلك جاء السماع غذاءً للعاشقين، إذ إن فيه خيالَ الاجتماع"[2].

3--5 ومضة: قلبُ الجلال جمالًا: نموذج النظرة إلى الموت:

إن شهود الحركات والسكنات صادرةً عن المحبوب هو الذي يكسوها حلّة الجمال، ويجعلها في نظر العارف لوحةً جميلةً، لا يقبل الوهم تصورًا يمكن أن يفوقها جمالًا وحُسنًا، حتى لو كان ظاهرها جلالًا.

فالموت الذي هو أكبر الجلاليات التي يمكن أن يمرّ بها البشر لا يعدو أن يكون عند العارف نقلةً من عالم إلى آخر، والنقلة عنده لا بدّ من أن تكون مصحوبةً بالترقي. ومن هذا المعنى يصف لنا اختفاء شيخه شمس تبريز، فقد قرن انتقاله بنداء الطبول وعطر البساتين:

"وفي النهاية غادرتَ، مضيت إلى عالم الخفاء
أيتها المعجزة! أيتها المعجزة! بأية طريقةٍ خرجتَ من هذا العالم؟
هززتَ جناحيك وريشك بقوّةٍ، ثم، بعد أن حطمت قفصك
أقلعت وغادرت إلى عالم الروح
كنت بازيًّا مهيبًا في مخزن حبوبٍ تمتلكه امرأةٌ عجوزٌ
وعندما سمعت نداء الطبل ذهبتَ إلى ما وراء المكان
كنت البلبلَ الرابط الجأش وسط البوم
عطرُ البستان وصل إليك فمضيت إلى البستان
أحسست بالملل من هذا العالم المؤذي
في النهاية، غادرتَ إلى حانة الأزل
مضيتَ كالسهم إلى الهدف الذي هو السعادة الأبديّة
فمن أجل ذلك الهدف، مثل السهم، انطلقت من القوس
أرسلَ لك العالم رسالة خاطئة
تركتَ الإشارات، ومضيت نحو ذلك الذي ليس فيه إشارات
عندما صرت الشمسَ، لِمَ تحتاج إلى تاج؟
لِمَ تبحث عن زنّار، عندما تركت المكان والزمان؟
سمعتُ بأنك صرت كلّك عيونًا، وأنت تتطلع نحو الروح
لِمَ تتطلّع إلى الروح، وقد غادرت إلى روح الروح".

---

[1] المصدر السابق، 1/1، وما بعد.
[2] المصدر السابق، 731/4، وما بعد.

إن الموت يمكّن الروح أن تفرَّ من سجن الشبح إلى فضاء الإطلاق، وفي ذلك انطلاقٌ من الجلال إلى الجمال، فتنتقل من البعد إلى القرب، ومن الهجر إلى الوصال:

"وعندما ترى جنازتي لا تقل: فراق فراق
فذلك زمان الوصال واللقاء لي
وعندما تودعني القبر لا تقل: وداعًا وداعًا
لأن القبر يخفي عنا اجتماع الجنان
وإذا رأيت النزول فانظر الصعود
أيكون غروب الشمس والقمر ضارًّا؟
يتراءى لك الأمر غروبًا، ولكنه شروق
يظهر اللحد كالحبس، وهو خلاصٌ للروح"[1].

هذا الخلاص عنده هو ترك شوائب الحس التي تحجب المرء عن شهود المعنى، فالبقاء مع الحس جلال، والهروب إلى المعنى جمال: **"الموت عند الصوفيّة هو مشاهدة الحقيقة العليا. لماذا يهرب الناس جميعًا من تلك المشاهدة"**[2].

خاتمة: تجلّت المنظومة المعرفية، التي شهدنا **ومضاتها** عند مولانا جلال الدين في **طريقةٍ** تجاوزت الرسوم، ورفعت همّة السالك لترتقي به إلى التحقق بصدق الطلب، كما تجلّت بالسلوك بالمريد في تحصيل **مقامات العرفان**، دون الوقوف عند منزلةٍ يشعر أنه انتهى إليها مراده، كذلك تجلّت **بجماليّة** هيمنت على أحوال السالكين في سيرهم إلى الله، والعارفين في سيرهم في الله.

إن هذه المنظومة المعرفية التي اختطفنا سنا **ومضاتها** ما هي إلا صدًى لخلافة الإنسان التي أكرمه بها الرحمن، فقد شرّفه بأن جعل فيه الأهليّة لقبول معرفته وحمل أمانته. وهذا ما عبّر عنه الرومي، قائلًا: **"الإنسان في هذه الدنيا لتنفيذ مهمة. وهذه المهمة هي هدفه الحقيقيّ، فإن هو لم ينفذها ما فعل شيئًا: { إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا } (الأحزاب72). هذه الأمانة عُرضت على الكون لكنه كان عاجزًا عن حملها. تأمل العدد الهائل للأعمال الفذّة التي يقوم بها الكون، وإنها من العظمة بحيث يستبدّ الرعب بالعقل. فالكون يحوّل الحجارة إلى ياقوتٍ ومَرجان، ويحوّل الجبال إلى مناجم الذهب والفضة، يجعل النبات براعم ويبثّ فيها الحياة... إنه قادرٌ على هذه الأمور الصعبة الخفيّة، لكنّه عاجزٌ عن تنفيذ هذا الشيء الوحيد. الإنسان وحده قادرٌ على فعله. قال سبحانه: { ولقد كرمنا بني آدم } (70الإسراء). لم يقل: كرمنا السماء أو الأرض. ولذلك فإن الإنسان يصنع الأشياء التي تعجز السماء والأرض والجبال عن صنعها. وعندما يصنعها يتحرر من صفة الظلم والجهل"**[3].

ثبت المصادر والمراجع:

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت.
- جلال الدين الرومي والتصوف: لميروفتش، نقله د. عيسى العاكوب، وزارة الثقافة، طهران.
- الرباعيات: لمولانا جلال الدين الرومي، دار الفكر، دمشق بيروت.
- فيه ما فيه: لمولانا جلال الدين الرومي، دار الفكر، دمشق بيروت.
- المثنوي: لمولانا جلال الدين الرومي، ترجمة الدكتور محمد عبد السلام كفافي.
- معراج التشوف إلى حقائق التصوف: لأحمد بن عجيبة الحسني، مطبعة الاعتدال، دمشق.

(1) أغان صوفيّة 911.
(2) الأفلاكي، مناقب العارفين، 242/1.
(3) فيه ما فيه 40،41.